6

الشرق الأوسط

مصر وسوريا والعراق: تحركات ناصر

في يوليو 1952 أخبر راديو القاهرة المصريين بأن الضباط الأحرار قد سيطروا على البلاد. طلب من الملك التخلي عن العرش ومغادرة البلاد بشكل دائم. قدم مجلس قيادة الثورة، بقيادة العقيد الشاب جمال عبد الناصر (ولد 1918) بداية جديدة. تم إلغاء دستور 1923. تم إنشاء محكمة ثورية لمحاكمة السياسيين من الطراز القديم. وبنهاية 1953 تمت الإطاحة بالنظام الملكي. ثم حدثت انقسامات عميقة داخل الجيش، تجسدت في شخصين، نجيب وناصر، حول ما إذا كان ينبغي عودة حكومة برلمانية أو حدوث ثورة جذرية. هزم الأخير منافسيه ونجا من محاولة اغتيال وحل الأحزاب القديمة اليمينية واليسارية وجماعة الإخوان المسلمين. تم تعزيز حركة التحرير كحركة إحياء وطنية. لم يكن ضد الإسلام ولكنه مصره الحديثة لن تكون ثيوقراطية. أعلن كتابه "فلسفة الثورة" (1954) عن شكل عربي للاشتراكية بمسحة إسلامية. لقد تحدث إلى الشعب بلغة عربية لم تكن متعالية في نبرتها ومفرداتها. سارت إليه السلطة بثبات. كان هو أول مصري من أهل البلد يقود الشعب لألفي عام. أزال بناء كورنيش النيل في القاهرة حديقة الدار البريطانية في المدينة. ستسافر القاهرة والمصريين معاً على طريق جديد.

كان لابد من إزالة أكثر من مجرد حديقة بريطانية. كانت هناك القاعدة البريطانية الضخمة في منطقة قناة السويس. في أكتوبر 1954 تم الاتفاق على سحب القوات البريطانية ولكن سيتم الاحتفاظ بالقاعدة تحت إدارة كلا من المتعاقدين المصريين والبريطانيين. وسيتم إعادة تنشيطها في حالة حدوث عدوان خارجي على أي من الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية. في 1955 رفع العلم المصري علي ميناء بورسعيد. وفي نهاية المطاف أمكن القول بأن مصر أصبحت مستقلة حقاً. ظل وضع القاعدة موضع نقاش مع الحكومة البريطانية منذ 1945. كان هناك حديث عن تحويلها محور قوة الدفاع عن الشرق الأوسط، لكن ذلك لم يسفر عن شيء. توصل نظام الحكم الجديد إلى إبرام اتفاق مع البريطانيين أن مستقبل السودان يجب تركه للسودانيين. في يناير 1956 لم يكن بمقدور حكومتي مصر وبريطانيا سوي قبول الاستقلال الذي أعلنه السودانيون حينها. من هم السودانيين لم يكن موضع نقاش.

كان ناصر لا يزال يري لمصر مكان في أفريقيا ولكنها كانت صوت العرب الذي نصبه لنفسه. بث راديو القاهرة رسالة مفادها أن الجماهير العربية يجب أن تنضم معاً لتحرير أنفسهم من الاستعمار والمتواطئين في جميع أنحاء الشرق الأوسط. لم تكن تلك هي الرسالة التي أراد الملك فيصل سماعها، والذي حصل حديثاً على سلطة كاملة في العراق وكان يسترشد بالسياسي المخضرم نوري السعيد. شهدت الشهور الأولي من عام 1955 نشاط دبلوماسي قوي في الناحية الشمالية من الشرق الأوسط. في فبراير وقعت تركيا والعراق معاهدة الدعم المتبادل. ذهب عدنان مندريس، والذي انتخب كرئيس وزراء تركي في أول انتخابات حرة في البلاد في 1950 (ومرة أخرى في 1954)، ببلاده إلى منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو). وقد انضمت إلى مجلس أوروبا في 1949. كانت ميوله غربية ولكنه أظهر تعاطفاً تجاه الإسلام أكثر مما سمحت به العقيدة الجمهورية في تركيا. لم تعد الدعوة إلى الصلاة باللغة العربية جريمة جنائية. تبع ذلك فترة من النمو الاقتصادي السريع، لم تعد الحكومة بحاجة لمراقبة الضوابط المالية التي يخضع لها أفراد معنيين. لم ترغب أنقرة أو بغداد في إعطاء مساحة ثقافية أو سياسية لأقليتهم الكردية.

بعد ذلك توسع الحلف. إنضمت بريطانيا في مارس كما فعلت باكستان وإيران بعدها. كان غرضها الظاهري هو الدفاع عن المنطقة ضد الاتحاد السوفيتي، لكنه ناصر اشتبه في أن يكون ذلك موجه ضده (على الرغم من أنها دعوه للانضمام). على أيه حال كانت هناك إشارة واضحة على رغبة بريطانيا في أن تظل متواجدة في الشرق الأوسط. بعد عشاء رائع في بغداد، قبل عشر سنوات، والذي استضافه نوري السعيد، أعجب المتجول ويندل ويلكي بإصرار العراق على بناء أول دولة حديثة ومستقلة في الشرق الأوسط. وقال السعيد حينها أن الوقت كان في صفه. لم يكن هناك شك أن مصر لديها تعداد سكان أكثر ثلاث مرات منه في العراق (وأكبر من الدول العربية المجاورة مجتمعة). وقعت مصر وسوريا معاهدة دفاع في مارس 1955. تم تأمين الاستقلال السوري (واللبناني) عن فرنسا بعد صراع فرنسي داخلي وتدخل بريطاني في 1946. عمل الانتداب الفرنسي في البلاد كقاعدة للتمثيل الطائفي لعناصره المتنوعة. أصبح التركيز الآن على الهوية السورية. كان التحالف مع مصر هو التطور الأخير في المشهد السياسي الدمشقي والذي شهد انقلابات عسكرية، أطولها أمداً انتهي في 1954. ربما يتم استحضار عالم عربي، كواقع سياسي في القاهرة.

تونس والمغرب وليبيا والجزائر: النهوض

كانت العاصمة المصرية هي الموطن الأساسي للحبيب بورقيبة، بعد الحرب، زعيم الحزب السياسي التونسي والذي كان يسعي لدستور جديد من فرنسا. وقد أقام مكتب مغربي كبير هناك. في وقت سابق كان قد تزوج من امرأة فرنسية أثناء وجوده كطالب قانون في باريس. عائداً إلى تونس في 1949، أطلق حملة من أجل الاستقلال التام (متخلياً عن فكرة وجود علاقة مستمرة ومتساوية مع فرنسا). وعقب نفيه في 1952 حدث تمرد لم تستطع القوات الفرنسية احتواءه. قدم عرضاً بالحكم الذاتي الداخلي في 1954 ولكن من غير المرجح أن يكون ذلك كافياً. حدثت عملية مختلفة في المغرب، ولكن بنفس النتائج الوشيكة. وهناك ربط السلطان نفسه بالحزب القومي واستحضر بذكاء الميثاق الأطلسي وعزل نفسه ونفي إلى مدغشقر. فشلت المحاولة لجعل الكلاوي، باشا مراكش، يمثل

صوت البربر (أهل الداخل) وبالتالي تقسيم وإلغاء المقاومة المغربية. وبنهاية عام 1955 تم الاعتراف باستقلال المغرب. عاد السلطان ولقب بالملك محمد الخامس. وقد أوضح أنه من الممكن مواكبة القومية (فشل ملك تونس في ذلك). إلا أن خلق المغرب أثار مرة أخرى جدلاً حول تمددها. لم تكن الحكومة الإسبانية، علي عكس الفرنسية، تحت أي ضغط عسكري في أجزاء أخرى من العالم. لم يكن من المقدر أن تتزحزح من صحرائها. تم تقسيم ليبيا، بعد رحيل الإيطاليين، كأرض تحت وصاية الأمم المتحدة وأدارها بشكل مستقل بريطانيا وفرنسا وأصبحت مستقلة كمملكة في 1951. كان أول عاهل هو إدريس، زعيم السنوسية، أتباع مذهب معين في الإسلام.

أصبحت القضية الجزائرية أكثر خطراً وأثارت قضايا أكبر خطورة من أي مكان في شمال أفريقيا. وافقت الجمعية الوطنية الفرنسية في سبتمبر 1947 على قانون بإنشاء الجمعية التأسيسية الجزائرية علي أساس إثنان من الحشود الانتخابية المختلفة. ومع ذلك تم التأكيد على أن الجزائر جزء من فرنسا. في مايو 1945 إندلع العنف وأدي إلى نسبة وفيات كبيرة، سواء فرنسيين أو مسلمين (تختلف الأرقام). وأشار الإجراء المتخذ في 1947 إلى الرغبة في الإصلاح، وكان إنشاء وزارة جزائرية جديدة في باريس خطوة أخرى، مع عدم التزحزح عن المبدأ الأساسي. وقد نجح الأمر لعدة سنوات ويرجع ذلك إلى أن الأحزاب المسلمة كانت منقسمة من حيث إستراتيجياتها. منع موقف المجتمعات الجزائرية في فرنسا، وبالطبع موقف مثلتها الفرنسية في الجزائر، عملية التحول النسبية البسيطة التي كانت تحدث في المغرب وتونس، إلا أن التغيير في هذه البلاد كان مصدر إلهام كما كانت مصر عبد الناصر. اندلع العنف مرة أخرى في نوفمبر 1954 مؤدياً إلى رد فعل قاسي. جمعت جبهه التحرير الوطني الأحزاب السياسية وأقنعتهم أن الحركة القومية تدخل في مرحلتها الأخيرة. لم يكن هذا هو رأي الحاكم العام الجديد" سوستل" والذي وفي حين التأكيد على أن الجزائر ستظل داخل الإطار الفرنسي قد وعد بأن المسلمين سيقومون بدورهم الكامل. لقد كان ذلك الهدف معلن من قبل. وربما كان الوقت متأخراً لجعله واقعاً. عبر مؤتمر باندونغ عن تضامنه مع النضال الجزائري من أجل الحرية. هل

كان السبيل الوحيد للخروج هو التفكيك الكامل للجزائر الفرنسية وعودة الأسر الفرنسية لموطنها وأيضاً عودة المسلمين الجزائريين الغير وطنيين؟

كان الجدال السياسي في جميع أنحاء المغرب، كما في أماكن أخرى، هو كيف التأمت المناطق المختلفة والانتماءات القبلية وكيف يمكن استيعاب التركيز على تقاليد دينية معينة، كيف اندمجت السلطة التقليدية مع بناء الدولة الحديثة، كيف تواجد الإسلام (وتقاليده) مع السياسة العلمانية، كيف تم دمج النظم القانونية، كيف يمكن إحداث التوازن بين المدن المتوازنة وثقافتها. تكررت جميع هذه القضايا من الرباط إلى البصرة ومن حلب إلى طرابلس. كان من الصعب أيضاً الحكم على التأثير الدائم الذي يمكن أن تحدثه اللغات والأنظمة الإدارية والقانونية التي استخدمتها فرنسا وبريطانيا. لكن هذه القضايا لم تقتصر على جانب واحد من البحر الأبيض المتوسط. فإذا كان العرب قد ناضلوا من أجل توحدهم فكذلك فعل الأوروبيون. وجد الأخيرين أنفسهم، وهم الذين تنقصهم لغة مشتركة كما انزعجوا من تاريخهم المسيحي المشترك، يتصارعون من جديد مع تنوعهم التاريخي. على الرغم من ذلك سعي السابقين، مع امتلاكهم لغة مشتركة وكتاب مقدس واحد، لتعزيز نوع من القومية الفردية، في حين عدم إنكار كونهم عرب. كان كلا العالمين، الأوروبي والعربي، يواجهان أزمة هوية.

فلسطين وإسرائيل: عدم التوصل لحل

كانت هناك قضية واحدة اجتمع عليها العام العربي وهى القضية الفلسطينية. في 1947 كان ثلثي سكان فلسطين تحت الانتداب الفرنسي من العرب، مسلمين ومسيحيين، وثلثهم من اليهود. كانت الحكومة البريطانية تحت ضغط شديد. تم التدرب مرة أخرى على خيارات مستقبل المنطقة. في فبراير أحالت الحكومة البريطانية المسألة إلى الأمم المتحدة والتي شكلت لجنة خاصة. أوصي تقرير الأغلبية في أغسطس، والذي تم تبنيه في الأمم المتحدة بأغلبية 33-13 مع امتناع 10 عن التصويت، بتقسيم ثلاثي: دولة عربية، ودولة يهودية (والتي يكون فيها اليهود والعرب متساوون تقريباً في العدد)، والقدس كمنطقة دولية. قرر البريطانيون في سبتمبر أنهم سينهون الانتداب في مايو 1948. لم يكن

لديهم حل. وغادرت أخر قوات بريطانية في الشهر التالي. لقد كانت نهاية مخزية لتدخل دام ثلاثين عاماً. دارت حرب داخلية بين اليهود والعرب علي قدم وساق. كان للأولين اليد العليا مستولين على مدن ومناطق عربية. تم إعلان دولة إسرائيل في 14 مايو. جاءت الهدن وذهبت. إقترح الكونت فولك برنادوت، وسيط الأمم المتحدة، أن العرب يجب أن يحصلوا على النقب والقدس والخليل اليهودي. لم يكن الاقتراح مقبولاً من جانب الإسرائيليين. في سبتمبر 1948 قتل برنادوت علي يد عصابة يهودية واستؤنف القتال.

من الناحية النظرية كان من المفترض أن يجعل تدخل الدول العربية المجاورة الميزان لصالح الفلسطينيين العرب، لكنهم كانوا منقسمين. تلاعب عبد الله أمير شرق الأردن بفكرة سوريا الكبرى، ولكنه استولي على الحكم وسعي للحصول على فلسطين. لم تلق الخطة إعجاب الدول العربية الأخرى أو مفتي القدس. فضلت دول أخرى إمداد الفلسطينيين بالمقاتلين دون إشراك الجيوش بشكل مباشر. استغلت إسرائيل هذه الاختلافات بين خصومها وبحلول يناير 1949، وكانوا يحاربون جيشاً مصرياً حينها، انتصر الإسرائيليون. سار الشاب ناصر بعيداً مرفوع الرأس لكن شعوره القومي كان مخذولاً. حصل عبد الله على ما يمكن أن يسمي فلسطين العربية وكذلك القدس القديمة (احتفظ الإسرائيليون بالجزء الجديد). أصبحت مملكته تعرف الآن باسم الأردن. في ديسمبر 1951 أتت مؤامرة غامضة لاغتياله في القدس. وبعد ذلك بعام، وخلفاً لوالد غير مستقر عقلياً، تم إخراج الشاب حسين من تعليمه في هارو" مدرسة تشرشل القديمة في إنجلترا" ليعتلي العرش. جعلت كراهية السعودية للسلالة الهاشمية من جهة والمعارضة فى مصر من جهة أخرى حكم حسين قصيراً.

أدي نزوح حوالي 700,000 من العرب، سواء تم طردهم أو فروا من فلسطين إلى مشاكل كبيرة لأنفسهم وللدول المستقبلة. لم تسمح إسرائيل بعودة المنفيين ودخلوا في نوع من النسيان الدائم لعديمي الجنسية. لم تجعلهم الدول المستقبلة مواطنين لأن القيام بذلك يلزم التخلي عن فكرة عودتهم. كونك فلسطينياً كان دائماً محل إشكال وجعل الموقف الجديد تقبلهم أكثر صعوبة. لم تنجح المحاولات لتحقيق تسوية نهائية برعاية الأمم

المتحدة. أصبحت الدول العربية أكثر حزماً بعد الهزيمة، على الرغم من استمرار الحرب، أكثر مما كانوا قبلها. منعت مصر، في تحد لقرارات مجلس الأمن، السفن الإسرائيلية من المرور عبر قناة السويس. تبع ذلك التهديدات والمواجهات. بدا القتال محتملاً. كان وجود وتوسع دولة إسرائيل تذكيراً دائماً بإذلال العالم العربي، وقد كان يمثل أيضاً تدخل جديد للغرب، ليس لأن الغرب يتحدث بصوت واحد. كانت لندن وواشنطن على خلاف سياسي. واجه بيفن بعض الاتهامات بأنه كان معادياً للسامية. كان الرئيس ترومان سريعاً جداً في الاعتراف بدولة إسرائيل، ربما حرصاً على ضمان أصوات اليهود في الانتخابات الرئاسية في 1948. ظل الدعم اليهودي لإسرائيل في جميع أنحاء العالم. كان من الصعب على الرأي الغربي، الذي كان على دراية بالمحرقة، عدم التعاطف مع الطموح الصهيوني بعودة اليهود لموطنهم. وأشار العرب بدورهم أن ذنب أوروبا لا يجب التكفير عنه على حساب الفلسطينيين العرب. أكدت المناقشات أن الشرق الأوسط لا ينتمي كلياً للشرق الأوسط.

إيران: تكميم مصدق

قدمت إيران مثالاً حياً على هذه النقطة. في نوفمبر 1951 تحولت الحشود في القاهرة إلى مكان لازال يسمي مطار فاروق يهتفون "تحيا إيران". نزل من الطائرة رئيس الوزراء الإيراني، دكتور محمد مصدق، في طريق عودته إلى طهران بعد اجتماعه بمجلس الأمن في نيويورك. قدمت المدينة مأدبة عشاء على شرفه. كان لمصدق، المنتخب حديثاً من قبل البرلمان الإيراني بعد اغتيال سلفه، مهمة تأميم الشركة البريطانية الإيرانية للنفط (التي كان للحكومة البريطانية فيها حصة الأغلبية)، ناهياً بذلك حقوقها التي لم تنتهي بعد واستكشافها في المحافظات الجنوبية في إيران. كان لديه دعم الشارع. طال أمد الصراع. جلب ذلك في المقدمة قضية معينة لكنها أيضاً كانت لحظة رمزية. كانت إيران تنوي التخلص من تبعيتها للغرب، خاصة بريطانيا. ربما كان يأمل أن الخوف الأمريكي من الشيوعية في إيران سيجبر أمريكا على جعل بريطانيا تفسح المجال. اعتبرت حكومة حزب العمال البريطانية الخطوة الإيرانية غير قانونية وغير مقبولة كلياً. أغلقت الشركة مصفاة

عبادان ودبرت مقاطعة للنفط الإيراني. أعقب ذلك صراع مرير بين الحكومتين، مع تصميم الجانبين على عدم القيام بأي تنازلات. لم يكن ذلك هو الصراع الوحيد. أراد مصدق تقويض سلطة الشاه. فر الأخير مؤقتاً من البلاد في أغسطس 1953. وفي الشهر نفسه أطاح الانقلاب، الذي تورطت فيه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، بمصدق. كان لبعض الأوساط العسكرية والدينية أسبابها الخاصة في رغبتهم في رحيله.

كثرت التناقضات. لم يكن مصدق (ولد في 1882) شعاراً لجيل جديد، مثل ناصر. وكنجل لوزير المالية في عهد السلالة السابقة وكونه على اتصال بالطبقة الأرستقراطية، كان قد درس في شبابه في جامعات فرنسا وسويسرا. لم يكن محفظاً دينياً ولا شيوعياً وفي بعض النواحي كان غربياً. جاء الشاه علي رأس القائمة في ظل النضال واستعاد قبضته الصارمة. أصبحت السياسة الدستورية مرة أخرى معلقة. أخذ بلاده إلى حلف بغداد. وبالنسبة لبريطانيا والولايات المتحدة وعلى الرغم من بعض الاختلافات بينهم كان ما يهمهم هو تأمين الجانب الشمالي من أجل الغرب. لم ينجح مصدق ولكن لم تستعيد الشركة البريطانية الإيرانية للنفط وضعها السابق. كان لابد للحكومات الغربية وشركات النفط الذين لم تتوافق مصالحهم المعنية ووجهات نظرهم هنا كما في أماكن أخرى في الشرق الأوسط وخارجه من التكيف مع الحقائق السياسية الجديدة التي نشأت من ازدهار إنتاج النفط في جميع أنحاء المنطقة.